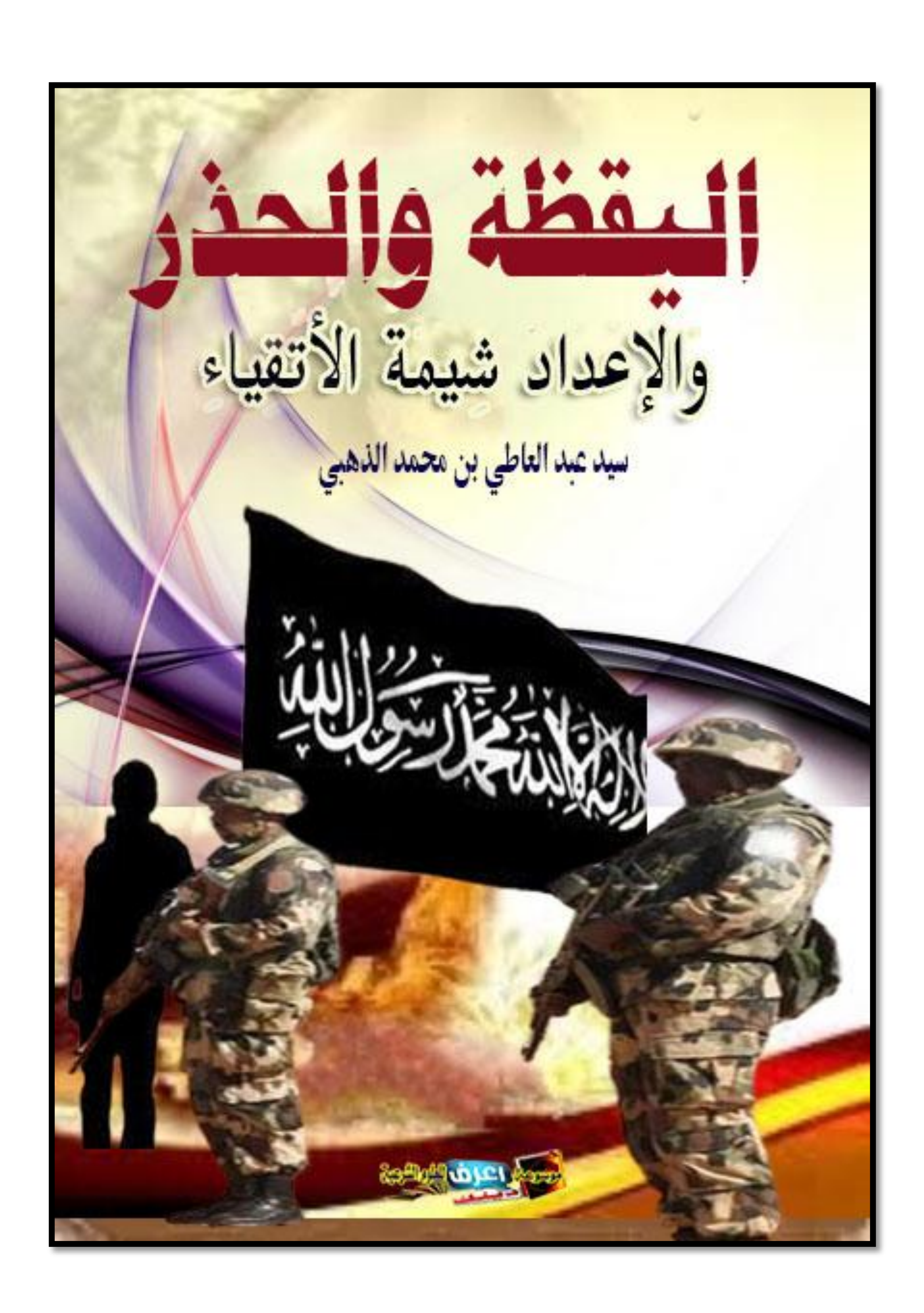

اليقظة والحذر
والإعداد شيمة الأتقياء
سيد عبد العاطي بن محمد الذهبي
لا إله إلا الله محمد رسول الله

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة



ـــ الْحَمْدُ للهِ خَالِقِ الدُّجَى وَالصَّبَاحِ، وَمُسَبِّبِ الْهُدَى وَالصَّلَاحِ، وَمُقَدِّرِ الْغُمُومِ وَالْأَفْرَاحِ. عَزَّ فَارْتَفَع، وَفرَّقَ وَجَمَع، وَوَصَلَ وَقَطَع، وَحَرَّمَ وَأَبَاح. مَلَكَ وَقَدَّر، وَطَوَى وَنَشَر، وَخَلَقَ الْبَشَرَ، وَفَطَرَ الأَشْبَاحَ. رَفَعَ السَّمَاءَ، وَأَنْزَلَ الْمَاءَ، وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ، وَذَرَى الرِّيَاحَ. أَعْطَى وَمَنَح، وَأَنْعَمَ وَمَدَح، وَعَفَا عَمَّنِ اجْتَرَح، وَدَاوَى الْجِرَاحَ. عَلِمَ مَا كَانَ وَيَكُونُ، وَخَلَقَ الْحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ، وَإِلَيْهِ الرُّجُوعُ وَالرُّكُونُ، فِي الْغَدِ وَالرَّوَاح. يَتَصَرَّفُ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ، وَيَنْصِبُ مِيزَانَ يَوْمِ الْعَرْضِ:{اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ}.(النُّور:٣٥). وَأَشْهَدُ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْكَرِيمُ الْفَتَّاحُ،وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا جَنَّ لَيْلٌ وَتَنَفَّسَ صَبَاحٌ. أَمَّا بَعْدُ: •فَلَا شَكَّ أَنَّ الْأُمَّةَ الْمُسْلِمَةَ تَعِيشُ وَاقِعًا مَرِيرًا حَيْثُ تَدَاعَتْ عَلَيْهَا الْأُمَمُ كَمَا أَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–فَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي سُنَنِهِ بِرَقْمِ(٤٢٩٧)مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَان مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ–رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ–قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–:{ يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا . فَقَالَ قَائِلٌ : وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ،وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ . فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ ! وَمَا الْوَهْنُ ؟

قَالَ : حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ}.فَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ،فَإِذَا تَرَكَ الْمُسْلِمُونَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَحَرَصُوا عَلَى الدُّنْيَا وَأَحَبُّوهَا وَكَرِهُوا الْمَوْتَ، طَمِعَ فِيهِمْ أَعْدَاءُ اللهِ مِنَ الْكُفَّارِ، وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يَقُولُ النَّبِيُّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–:{يُوشِكُ الْأُمَمُ أن تَدَاعَى عَلَيْكُمْ}،أَيْ: يَقْرَبُ أَنْ تَجْتَمِعَ وَتَتَّحِدَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْأُمَمُ الْكَافِرَةُ،{كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا}، أَيْ: كَمَا يَجْتَمِعُ



الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ عَلَى الطَّعَامِ، وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى السُّهُولَةِ الَّتِي يَلْقاهَا الْعَدُوُّ فِي الْمُسْلِمِينَ.فَقَالَ قَائِلٌ:

{وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟}، أَيْ: هَلْ يَكُونُ طَمَعُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لِقِلَّةِ عَدَدِهِمْ؟ قَالَ النَّبِيُّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: {بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ}، أَيْ: يَكُونُ مَطْمَعُهُمْ فِي الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ لِقِلَّةِ الْعَدَدِ– فَإِنَّ الْعَدَدَ يَكُونُ كثيرًا وَلَكِنْ لَا نَفْعَ فِيهِ وَلَا فَائِدَةَ– وَلَكِنْ لِقِلَّةِ شَجَاعَتِهِمْ وَشِدَّةِ تَفَرُّقِهِمْ، وَغُثَاءُ السَّيْلِ: مَا يَطْفُو عَلَى مَاءِ السَّيْلِ مِنْ زَبَدٍ وَأَوْسَاخٍ وَفَقَاقِيعَ.قَالَ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–:

{وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ}، أي: الْخَوْفَ، {وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ}،أي: الْحِرصُ عَلَيْهَا وَالتَّطَلُّعُ فِيهَا وَتَرْكُ الْعَمَلِ للآخِرَةِ، وَهَذَا يَجْعَلُهُمْ يَخَافُونَ الْمَوْتَ وَيُحِبُّونَ الْحَيَاةَ وَمُتَعَ الدُّنْيَا، فَيَتْرُكُونَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ. •وَتَدَاعِي الْأُمَمِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَلَقَةٌ مِنْ حَلَقَاتِ الصِّرَاعِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ،وَهَذَا الصِّرَاعُ سُنَّةٌ كَوْنِيَّةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،الْعَاقِبَةُ فِيهِ للمُتَّقِينَ،وَالنَّصْرُ فِيهِ للإِسْلَامِ الدِّينُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ للبَشَرِيَّةِ دِينًا فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ:{..الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}.(المائدة:٣). •هَذَا وَقَدْ صَنَّفْتُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ الْمُخْتَصَرَةَ لأُبَيِّنَ فِيهَا الْكَيْدَ وَالْمَكْرَ مِنْ جِهَةِ الْأَعْدَاءِ،وَمَا يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ يَقَظَةٍ وَحَذَرٍ وَإِعْدَادٍ لِمُوَاجَهَةِ الأَعْدَاءِ وَعَنْوَنْتُ لَهَا بِهَذَا الْعُنْوَانِ {الْيَقَظَةُ وَالْحَذَرُ وَالْإِعْدَادُ شِيمَةُ الْأَتْقِيَاءِ}،وَقَدْ حَانَ أَوَانُ الشُّرُوعِ فِي الْمَقْصُودِ فَأَقُولُ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ:



•أَوَّلًا:الْمَكْرُ وَالْكِيدُ مِنْ أَخْلَاقِ الْأَعْدَاءِ:

–إِنَّ الْمُتَدَبِّرَ للقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَسِيرَةِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–يَجِدُ أَنَّ الْمَكْرَ وَالْكَيْدَ صِفَةُ الْأَعْدَاءِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَإِلَيْكَ الْأَدِلَّةُ:

(١)قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}. (الأنعام:١٢٣).

-أيْ:وَكَمَا جَعَلْنَا فِي قَرْيَتِكَ مَكَّةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ رُؤَسَاءَ دُعَاةً إِلَى الْكُفْرِ وَإِلَى عَدَاوَتِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ رُؤَسَاءَ مِنَ الْمُجْرِمِينَ مِثْلَهُمْ لِيَمْكُرُوا فِيهَا، وَيَتَجَبَّرُوا عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ كَانَتِ الْعَاقِبَةُ للرُّسُلِ، فَلَا تَبْتَئِس يَا مُحَمَّدُ مِمَّا يُصِيبُكَ مِنْ زُعَمَاءِ مَكَّةَ فَتِلْكَ طَبِيعَةُ الْحَيَاةِ فِي كُلِّ عَصْرٍ، أنْ يَكُونَ زُعَمَاءُ الْأمَمِ وَكُبَرَاؤهَا أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَة للرُّسُلِ وَالْمُصْلِحِينَ،وَإِنَّمَا مَكْرُهُمْ وَكَيْدُهُمْ يَعُودُ عَلَى أنْفُسِهِمْ، لأنَّهُمْ يَمْكُرُونَ، وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ.

(٢)وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ نَبِيِّ اللَّهِ نُوح–عَلَيْهِ السَّلَامُ–:{وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا}.(نوح:٢٢).

-أىْ : أنَّ هَؤلَاءِ الزُّعَمَاءَ الَّذِينَ اسْتَعْمَلُوا نِعَمَكَ فِى الشَّرِّ ، لَمْ يَكْتَفُوا بِتَحْرِيضِ أتْبَاعِهِمْ عَلَى مَعْصِيَتِى ، بَلْ مَكَرُوا بِى وَبِالْمُؤمِنِينَ مَكْرًا قَدْ بَلَغَ النِّهَايَةَ فِى الضَّخَامَةِ وَالعِظَمِ.فَقَوْلُهُ:{كُبَّاراً} مُبَالَغَةٌ فِى الْكِبَرِ وَالْعِظَمِ .أىْ:مَكْرًا كَبِيرًا جِدًّا لَا تُحِيطُ بِحَجْمِهِ الْعِبَارَةُ،وَالْمَكْرُ : هُوَ التَّدْبِيرُ فِى خَفَاءٍ لِإنْزَالِ السُّوءِ بِالْمَمْكُورِ بِهِ.وَكَانَ مِنْ مَظَاهِرِ مَكْرِهِمْ : تَحْرِيضُهُمْ لِسِفْلَتِهِمْ عَلَى إنْزَالِ الْأذَى بِنُوحٍ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – وَبِأتْبَاعِهِ – وَإِيهَامِهِمْ لهَؤلَاءِ السِّفْلَةِ أنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ ، وَأنَّ نُوحًا وَمَنْ مَعَهُ عَلَى الْبَاطِلِ .

(٣)وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ مَكْرِ قَوْمِ نَبِيِّ اللَّهِ صَالِحٍ–عَلَيْهِ السَّلَامُ–:{وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}. (النّمل:٥٠–٥١).

–{وَمَكَرُوا مَكْرًا}أيْ:دَبَّرُوا أمْرَهُمْ عَلَى قَتْلِ صَالِحٍ وَأهْلِهِ عَلَى وَجْهِ الْخِفْيَةِ حَتَّى مِنْ قَوْمِهِمْ خَوْفًا مِنْ أوْلِيَائِهِ {وَمَكَرْنَا مَكْرًا} بِنَصْرِ نَبِيِّنَا صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَيْسِيرِ أمْرِهِ وَإِهْلَاكِ قَوْمِهِ الْمُكَذِّبِينَ {وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ}. –{فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ}.أيْ:هَلْ حَصَلَ مَقْصُودُهِمْ؟ وَأدْرَكُوا بِذَلِكَ الْمَكْرِ مَطْلُوبَهُمْ أمِ انْتَقَضَ عَلَيْهِمُ الْأمْرُ وَلِهَذَا قَالَ:{أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}.أيْ: أهْلَكْنَاهُمْ وَاسْتَأصَلْنَا شَأفَتَهُمْ فَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةُ عَذَابٍ فَأُهْلِكُوا عَنْ آخِرِهِمْ.

(٤)وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُبَيِّنًا تَحَصُّنَ نَبِيِّهِ هُود–عَلَيْهِ السَّلَامُ–مِنْ كَيْدِ قَوْمِهِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ:{إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤)مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.(هود:٥٤–٥٦).

(٥) وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ كَيْدِ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْدَمَا دَعَاهُمْ للتَّوْحِيدِ وَحطَّم أصْنَامَهُمْ وَكَيْفَ أعَدُّوا لَهُ نَارًا مُحْرِقَةً لِيَتَخَلَّصُوا مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ فَنَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى:{قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨)قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ}. (الأنبياء:٦٨-٧٢).

(٦)وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُبَيِّنًا كَيْدَ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:{فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى}.(طه: ٦٠-٦٤).،وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى كَيْدَ فِرْعَوْنَ فَقَالَ تَعَالَى:
{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ}.(غافر:٣٦-٣٧). -فَقَوْلُهُ:{وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ}.أيْ:وَمَا احْتِيَالُ فِرْعَوْنَ وَتَدْبِيرُهُ لإِيهَامِ النَّاسِ أنَّهُ مُحِقٌّ، وَمُوسَى مُبْطِلٌ إلَّا فِي خَسَارٍ وَبَوَارٍ،لَا يُفِيدُهُ إلَّا الشَّقَاءَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

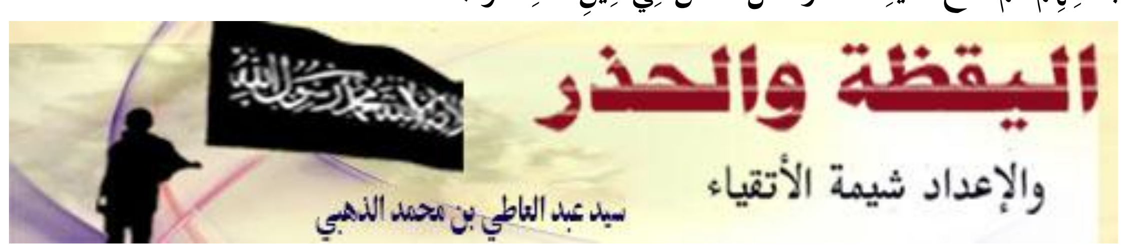
(٧)وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى مَوَضِّحًا مَكْرَ الْيَهُودِ بِنَبِيِّ اللَّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَيْفَ أرَادُوا صَلْبَهُ أمَامَ النَّاسِ فَمَكَرَ اللَّهُ بِهِمْ وَرَفَعَهُ إلَيْهِ وَلَمْ يُمَكِّنْهُمْ مِنْهُ:{ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}.(آل عمران: ٥٤-٥٥).

(٨)وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُبَيِّنًا مَكرَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ بِخَاتَمِ الْأنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-وَكَيْفَ حَاوَلُوا قَتْلَهُ أكْثَر مِنْ مَرَّةٍ وَسَحَرُوهُ وَسَمُّوهُ وَأخْرَجُوهُ وَعَذَّبُوا أصْحَابَهُ



وَصَدُّوا عَنْ دَعْوَتِهِ،وَمَا تَرَكُوا مَكْرًا إلَّا مَكَرُوهُ بِهِ لَكِنْ عَصَمَهُ اللَّهُ وَنَصَرَهُ عَلَيْهِمْ:{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}.(الأنفال:٣٠).وَقَالَ تَعَالَى:{أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥)إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}.(الأعراف:١٩٥-١٩٦).

-وَكَانَ عَاقِبَةُ أولئكَ الْمُتَآمِرِينَ مِنْ صَنَادِيدِ مَكَّةَ الَّذِينَ مَكَرُوا بِالنَّبِيِّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-لِيَقْتُلُوهُ أَوْ لِيَحْبِسُوهُ أَوْ لِيُخْرِجُوهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى مَكَرَ بِهِمْ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ كَيْدَهُمْ، فَجَرَّهُمْ إِلَى بَدْرٍ لِيُصْرَعُوا فِيهَا:{أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ المَكِيدُونَ}.(الطُّور:٤٢).،وَهَزَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْأَحْزَابِ فَقَالَ تَعَالَى:{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}.(الأحزاب:٢٢-٢٧).،وَمَكَّنَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-مِنْ مَكْرِ الْيَهُودِ بِهِ بِإِجْلَاءِ بَعْضِهِم وَقَتْلِ بَعْضِهِمْ،ثُمَّ فَتَحَ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أفْوَاجًا.



•ثانِيًا:الْيَقَظَةُ وَالْحَذَرُ وَالْإِعْدَادُ شِيمَةُ الْمُؤْمِنِينَ الْأَتْقِيَاءِ:

-فَكَمَا حَذَّرَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مَكْرِ وَكَيْدِ الْأَعْدَاءِ وَبَيَّنَ لَنَا اسْتِمْرَارَ عَدَاوَتِهِمْ فَقَالَ تَعَالَى:{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }. (البقرة:٢١٧).

–وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}.(آل عمران١١٨–١٢٠).

•فَقَدْ أمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِالْيَقَظَةِ وَالْحَذَرِ وَالْإِعْدَادِ عَلَى قَدْرِ الاسْتِطَاعَةِ وَذَلِكَ فِي مَوَاضِع كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ أذْكُرُ مِنْهَا:

(١)قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا}.(النِّساء:٧١).

–قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ:{يَأمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤمِنِينَ بِأخْذِ حِذْرِهِمْ مِنْ أعْدَائِهِمُ الْكَافِرِينَ. وَهَذَا يَشْمَلُ الْأَخْذَ بِجَمِيعِ الْأَسْبَابِ، الَّتِي بِهَا يُسْتَعَانُ عَلَى قِتَالِهِمْ وَيُسْتَدْفَعُ مَكْرُهُمْ وَقُوَّتُهُمْ، مِنَ اسْتِعْمَالِ الْحُصُونِ وَالْخَنَادِقِ،وَتَعَلُّمِ الرَّمْيِ وَالرُّكُوبِ، وَتَعَلُّمِ الصِّنَاعَاتِ الَّتِي تُعِينُ عَلَى ذَلِكَ، وَمَا بِهِ يُعْرَفُ مَدَاخِلُهُمْ، وَمَخَارِجُهُمْ، وَمَكْرُهُمْ، وَالنَّفِيرُ فِي سَبِيلِ اللهِ. وَلِهَذَا قَالَ: {فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ} أيْ:مُتَفَرِّقِينَ بِأنْ تَنْفِرَ سَرِيَّةٌ أوْ جَيْشٌ،وَيُقِيمَ غَيْرُهُمْ {أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا} وَكُلُّ هَذَا تَبَعٌ للمَصْلَحَةِ وَالنِّكَايَةِ، وَالرَّاحَةِ للمُسْلِمِينَ فِي دِينِهِمْ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ }.

(٢)وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا}. (النّساء:١٠٢). –أيْ:وَإِذَا كُنْتَ –أيُّهَا النَّبِيُّ– فِي سَاحَةِ الْقِتَالِ، فَأَرَدْتَ أنْ تُصَلِيَ بِهِمْ، فَلْتَقُمْ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ للصَّلَاةِ، وَلْيَأخُذُوا سِلَاحَهُمْ، فَإِذَا سَجَدَ هَؤُلَاءِ فَلْتَكُنْ الْجَمَاعَةُ الْأُخْرَى مِنْ خَلْفِكُمْ فِي مُوَاجَهَةِ عَدُوِّكُمْ، وَتُتِمُّ الْجَمَاعَةُ الْأولَى رَكْعَتَهُمُ الثَّانِيَةَ وَيُسَلِّمُونَ، ثُمَّ تَأتِي الْجَمَاعَةُ الْأُخْرَى الَّتِي لَمْ تَبْدَأ الصَّلَاةَ فَلْيَأتَمُّوا بِكَ فِي رَكْعَتِهِمْ الْأولَى، ثُمَّ يُكْمِلُوا بِأنْفُسِهِمْ رَكْعَتَهُمُ الثَّانِيَةَ، وَلْيَحْذَرُوا مِنْ عَدُوِّهِمْ وَلْيَأخُذُوا أسْلِحَتَهُمْ. وَدَّ الْجَاحِدُونَ لِدِينِ اللهِ أنْ تَغْفُلُوا عَنْ سِلَاحِكُمْ وَزَادِكُمْ؛ لِيَحْمِلُوا عَلَيْكُمْ حَمْلَةً وَاحِدَةً فَيَقْضُوا عَلَيْكُمْ، وَلَا إِثْمَ عَلَيْكُمْ حِينَئِذٍ

إنْ كَانَ بِكُمْ أذَىً مِنْ مَطَرٍ، أوْ كُنْتُمْ فِي حَالِ مَرَضٍ، أنْ تَتْرُكُوا أسْلِحَتَكُمْ، مَعَ أخْذِ الْحَذَرِ. إنَّ اللهَ تَعَالَى أعَدَّ للجَاحِدِينَ لِدِينِهِ عَذَابًا يُهِينُهُمْ، وَيُخْزِيهِمْ.

(٣)وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}.(آل عمران: ١٢٠). –{إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ}كَالنَّصْرِ عَلَى الْأعْدَاءِ وَحُصُولِ الْفَتْحِ وَالْغَنَائِمِ {تَسُؤْهُمْ} أيْ: تَغُمُّهُمْ وَتُحْزِنُهُمْ{وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}. فَإذَا أتَيْتُمْ بِالْأسْبَابِ الَّتِي وَعَدَ اللهُ عَلَيْهَا النَّصْرَ –وَهِيَ الصَّبْرُ وَالتَّقْوَى– لَمْ يَضُرَّكُمْ مَكْرُهُمْ، بَلْ يَجْعَل اللهُ مَكْرَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ لأنَّهُ مُحِيطٌ بِهِمْ عِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ فَلَا مَنْفَذَ لَهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَلَا يَخفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ شَيءٌ.

(٤)وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍۢ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍۢ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}.(الأنفال: ٦٠).

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ:{وَأَعِدُّوا} لأعْدَائِكُمُ الْكُفَّارِ السَّاعِينَ فِي هَلَاكِكُمْ وَإبْطَالِ دِينِكُمْ. {مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} أيْ: كُلّ مَا تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُوَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ وَأنْوَاعِ الْأسْلِحَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُعِينُ عَلَى قِتَالِهِمْ، فَدَخَلَ فِي ذَلِكَ أنْوَاعُ الصِّنَاعَاتِ الَّتِي تَعْمَلُ فِيهَا أصْنَافُ الْأسْلِحَةِ وَالْآلَاتِ مِنَ الْمَدافِعِ وَالرَّشَّاشَاتِ، وَالْبَنَادِقِ، وَالطَّائِرَاتِ الْجَوِّيَّةِ، وَالْمَرَاكِبِ الْبَرِّيَّةِ وَالْبَحَرِيَّةِ، وَالْحُصُونِ وَالْقِلَاعِ وَالْخَنَادِقِ، وَآلَاتِ الدِّفَاعِ، وَالرَّأْيِ: وَالسِّيَاسَةِ الَّتِي بِهَا يَتَقَدَّمُ الْمُسْلِمُونَ وَيَنْدَفِعُ عَنْهُمْ بِهُ شَرُّ أعْدَائِهِمْ، وَتَعَلُّمِ الرَّمْيِ، وَالشَّجَاعَةِ وَالتَّدْبِيرِ. وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. : (ألَا إنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ) وَمِنْ ذَلِكَ: الاسْتِعْدَادُ بِالْمَرَاكِبِ الْمُحْتَاجِ إلَيْهَا عِنْدَ الْقِتَالِ،وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} وَهَذِهِ الْعِلَّةُ مَوْجُودَةٌ فِيهَا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَهِيَ إرْهَابُ الْأعْدَاءِ، وَالْحُكْمُ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ. فَإذَا كَانَ شَيءٌ مَوْجُودٌ أكْثَرَ إرْهَابًا مِنْهَا، كَالسَّيَّارَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَالْهَوَائِيَّةِ، الْمُعَدَّةِ للقِتَالِ الَّتِي تَكُونُ النِّكَايَةُ فِيهَا أشَدّ، كَانَتْ مَأمُورًا بِالاسْتِعْدَادِ بِهَا، وَالسَّعْيِّ لِتَحْصِيلِهَا،حَتَّى إنَّهَا إذَا لَمْ تُوجَدْ إلَّا بِتَعَلُّمِ الصِّنَاعَةِ، وَجَبَ ذَلِكَ، لأنَّ مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إلَّا بِهِ، فَهُوَ وَاجِبٌ وَقَوْلُهُ: {تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} مِمَّنْ تَعْلَمُونَ أنَّهُمْ

أعْدَاؤُكُمْ. ْ{وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ} مِمَّنْ سَيُقَاتِلُونكُمْ بَعْدَ هَذَا الْوَقْتِ الَّذِي يُخَاطِبُهُمُ اللهُ بِهِ ْ{اللَّهُ يَعْلَمُهُم} فَلِذَلِكَ أَمَرَهُمْ بِالاسْتِعْدَادِ لَهُمْ،وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ عَلَى قِتَالِهِمْ بِذَلِكَ النَّفَقَاتُ الْمَالِيَّةُ فِي جِهَادِ الْكُفَّارِ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُرَغِّبًا فِي ذَلِكَ: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّه} قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا {يُوَفَّ إِلَيْكُمْ} أَجْرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُضَاعَفًا أَضْعَافًا كَثِيرَةً، حَتَّى إِنَّ النَّفَقَةَ فِي سَبِيلِ اللّهِ، تُضَاعَفُ إِلَى سَبْعِمَائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.{وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} أَيْ: لَا تُنْقَصُونَ مِنْ أَجْرِهَا وَثَوَابِهَا شَيْئًا.

(٥)وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ–رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–فِي صَحِيحِهِ بِرَقَمِ (٢٦٦٤)مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ–رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ–قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–:{الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ}. –لَقَدْ جَاءَ النَّبِيُّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِتَعَالِيمَ نَافِعَةٍ، وَوَصَايَا جَامِعَةٍ، تَبُثُّ فِي الْمُسْلِمِ الْأَمَلَ وَالشَّجَاعَةَ وَالْقُوَّةَ، وَتُحَوِّلُهُ إِلَى فَرْدٍ نَافِعٍ وَمُفِيدٍ يَمْلَأُ الدُّنْيَا خَيْرًا وَعَطَاءً وَإِحْسَانًا.
–وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يُبَيِّنُ النَّبِيُّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّ {الْمُؤْمِنَ الْقَوِيَّ} يَعْنِي فِي إِيمَانِهِ {خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْمُؤمِنِ الضَّعِيفِ} وَهُوَ الَّذِي فِي إِيمَانِهِ ضَعْفٌ، {وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ} أَيْ: فِي كُلٍّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ خَيْرٌ؛ لاشْتِرَاكِهِمَا فِي الْإِيمَانِ، وَالْقُوَّةُ الْمَحْمُودَةُ تَحْتَمِلُ وُجُوهًا عَدِيدَةً؛ فَمِنْهَا الْقُوَّةُ فِي الطَّاعَةِ؛ فَيَكُونُ الْمُؤمِنُ أَحْسَنَ عَمَلًا، وَأَطْوَلَ قِيَامًا، وَأَكْثَرَ صِيَامًا وَجِهَادًا وَحَجًّا.
وَمِنْهَا الْقُوَّةُ فِي عَزِيمَةِ النَّفْسِ؛ فَيَكُونُ أَقْدَمَ عَلَى الْعَدُوِّ فِي الْجِهَادِ وَأَشَدَّ عَزِيمَةً فِي تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ وَالصَّبْرِ عَلَى إِيذَاءِ الْعَدُوِّ وَاحْتِمَالِ الْمَكْرُوهِ وَالْمَشَاقِّ فِي ذَاتِ اللهِ. وَمِنْهَا الْقُوَّةُ بِالْمَالِ وَالْغِنَى؛ فَيَكُونُ أَكْثَرَ نَفَقَةً فِي الْخَيْرِ وَأَقَلَّ مَيْلًا إِلَى طَلَبِ الدُّنْيَا، وَالْحِرْصِ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ فِيهَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الْقُوَّةِ، وَإِنَّمَا يُذَمُّ مِنْهَا الَّتِي تَأْتِي بِالتَّكَبُّرِ وَالتَّجَبُّرِ، وَالضَّعْفُ الَّذِي فِيهِ خَيْرٌ هُوَ الَّذِي يَكُونُ مِنْ لِينِ الْجَانِبِ وَالانْكِسَارِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيُذَمُّ مِنْهُ ضَعْفُ الْعَزِيمَةِ فِي الْقِيَامِ بِحَقِّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. –وَيُوصِي النَّبِيُّ–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– الْمُسْلِمَ بِقَوْلِهِ:{احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ}
يَعْنِي:بِالْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ،وَمَعَ الْأَخذِ بِالْأَسْبَابِ اعْتَمِدْ عَلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ، وَهُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: {وَاسْتَعِنْ بِاللهِ}؛ لأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَخَذَ بِالْأَسْبَابِ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ عَوْنٌ وَتَوْفِيقٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى، فَلَنْ يَحْصُلَ مَا يُرِيدُهُ، فَمُجَرَّدُ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ لَا يَكْفِي، بَلْ يُحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ وَرَاءَهُ،

وَهُوَ تَوْفِيقُ اللهِ وَإِعَانَتُهُ عَلَى حُصُولِ ذَلِكَ الشَّيءِ؛ فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وَالْمُرَادُ بِالْأَعْمَالِ النَّافِعَةِ: مَا يَعُودُ عَلَى الْإِنْسَانِ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. -ثُمَّ يَنْهَى النَّبِيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنِ الْعَجْزِ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا: الْكَسَلُ، وَهُوَ ضِدُّ النَّشَاطِ، وَهُوَ التَّثَاقُلُ عَمَّا لَا يَنْبَغِي التَّثَاقُلُ عَنْهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ لِعَدَمِ انْبِعَاثِ النَّفْسِ للخَيْرِ مَعَ وُجُودِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-يَسْتَعِيذُ بِاللهِ مِنْهُ. -فَمَنْ عَمِلَ بِتِلْكَ الْوَصِيَّةِ وَقَامَ بِهَا عَلَى وَجْهِهَا الْأَكْمَلِ، ثُمَّ أَصَابَتْهُ بَعْدَ ذَلِكَ مُصِيبَةٌ، فَلَا يَقُلْ:{لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا}؛ فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ غَيْرُ سَدِيدٍ، وَلَكِنْ يَقُولُ مُسْتَسْلِمًا وَرَاضِيًا، وَمُؤَمِّلًا الْخَيْرَ: {قَدَّرَ اللهُ}، أَيْ:

وَقَعَ ذَلِكَ بِمُقْتَضَى قَضَائِهِ وَعَلَى وَفْقِ قَدَرِه،{وَمَا شَاءَ فَعَلَ}؛ فَإِنَّهُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ. -وَبَعْدَ أَنْ نَهَى النَّبِيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ قَوْلِ كَلِمَةِ الشَّرْطِ {لَوْ} فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْضِعِ، نَبَّهَ عَلَى أَنَّهَا {تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ} مِنْ مُنَازَعَةِ الْقَدَرِ، وَالتَّأَسُّفِ عَلَى مَا فَاتَ؛ لأَنَّ فِيهَا الاعْتِرَاضَ عَلَى الْقَدَرِ، وَالتَّحَسُّرَ مِنْ وُقُوعِهِ، كَأَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ حِينَ تَنْزِلُ بِهِ مُصِيبَةٌ: لَوْ فَعَلَ كَذَا مَا أَصَابَهُ الْمَرَضُ!فَالْمُسْلِمُ مُطَالَبٌ بِالتَّسْلِيمِ للقَدَرِ،فَمَا أَرَادَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ؛ إِذْ قَضَاءُ اللهِ وَقَدَرُهُ لَا يَتَخَلَّفُ، فَمَا دَامَ الْإِنْسَانُ قَدِ اجْتَهَدَ فِي الْعَمَلِ، وَأَخَذَ بِالْأَسْبَابِ، مُسْتَعِينًا بِاللهِ، وَطَلَبَ الْخَيْرَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ؛ فَلَا عَلَيْهِ بَعْدَهَا إِلَّا أَنْ يُفَوِّضَ أَمْرَهُ كُلَّهُ للهِ، وَلْيَعلَمْ أَنَّ اخْتِيَارَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْخَيْرُ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُ مَا وَقَعَ لَهُ مَكْروهًا، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ دَفْعَ قَدَرِ الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَغْيِيرَهُ دُونَ إِذْنٍ مِنَ اللهِ، وَإِنِ اجْتَمَعَتْ لِذَلِكَ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا. -وَفِي الْحَدِيثِ: الْأَمْرُ بِفِعْلِ الْأَسْبَابِ وَالاسْتِعَانَةِ بِاللهِ. -وَفِيهِ:التَّسْلِيمُ لأَمْرِ اللهِ، وَالرِّضَا بِقَدَرِهِ عَزَّ وَجَلَّ. -وَفِيهِ:ثُبُوتُ صِفَةِ الْمَحَبَّةِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ. -وَفِيهِ:أَنَّ الْإِيمَانَ يَشْمَلُ الْعَقَائِدَ الْقَلْبِيَّةَ وَالْأَقْوَالَ وَالْأَفْعَالَ.

-وَفِيهِ:أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَتَفَاوَتُونَ فِي الْخَيْرِيَّةِ، وَمَحَبَّةِ اللهِ وَالْقِيَامِ بِدِينِهِ، وَأَنَّهُمْ فِي ذَلِكَ دَرَجَاتٌ. •فَعَلَى الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ أَنْ تَكُونَ حَذِرَةً مِنَ الْأَعْدَاءِ الْمُتَرَبِّصِينَ بِهَا،يَقِظَةً لِمَكْرِهِمِ وَكَيْدِهِمْ،وَعَلَيْهَا الْقِيَامُ بِوَاجِبِ الْإِعْدَادِ الْجَيِّدِ بِبِنَاءِ جِيلِ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ وَالاتِّبَاعِ الصَّادِقِ للنَّبِيِّ-صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَتَحْقِيقِ عَوَامِلِ النَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ الثَّبَاتِ وَوِحْدَةِ الصَّفِّ وَاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ وَالْقِيَادَةِ الْحَكِيمَةِ وَاعْدَادِ الْعُدَدِ مَعَ صِدْقِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ عَزّ وَجَلَّ وَالاسْتِعَانَةِ بِهِ سُبْحَانَهُ. •فَاللَّهُمَّ انْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَعِزَّ الْمُسْلِمِينَ،وَفَرِّج كَرْبَ الْمُوَحِّدِينَ فِي فِلَسْطِين،أَيِّدْهُمْ بِتَأْيِيدِكَ،وَانْصُرْهُمْ بِنَصْرِكَ يَا كَرِيم،وَعَلَيْكَ بِأَعْدَائِكَ أَعْدَاءِ الدِّين،لَا تَرْفَعْ لَهُمْ رَايَةً،وَلَا تُحَقِّقْ لَهُمْ غَايَةً، وَاجْعَلْهُمْ عِبْرَةً وَآيَةً،وَاجْعَلْ بَلَدَنَا مِصْرَ أَمْنًا أَمَانًا،سَخَاءً رَخَاءً، وَسَائِرَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ،وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



•كَتَبَهُ: خَادِمُكُمْ وَمُحِبُّكُمْ فِي اللَّهِ أبُو أحْمَد سَيِّد عَبْدِ الْعَاطِي بْن مُحَمّد الذَّهَبِيُّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَعَفَا عَنْهُ.

تمت والحمد لله رب العالمين

مع تحيات

موسوعة اعرف دينك للعلوم الشرعية



من مؤلفات الشيخ في الموسوعة

